

وفود اليمن

استقبل امرؤ القيس أخته عند وادى عارض فى ركب حافل من شيوخ اليمن، ولم تجد هند عند ذلك فرصة للإفشاء إلى أخيها بما كان من أمرها؛ ثم أنزلت فى خيمة أخيها حتى ضربت لها خيمة أخرى فسيحة فى جوارها، فانتقلت إليها، وأحسست بالحاجة الشديدة إلى الراحة منذ شعرت بالاطمئنان؛ فتركها امرؤ القيس لتصيب قسطها من النوم بعد سفرها الطويل، وما قاسته فى الأيام الماضية من المشقة والقلق.

وفى صباح اليوم التالى ذهب إليها، بعد أن عرف أنها قد استعدت للقائه، فوجدها تنتظره عند باب خبائها، مادة يديها نحوه فى شوق واضطراب.

فعانقها امرؤ القيس، وغلبته أشجانته، فجعل يبكى وهو يقبل وجنتيها وجبينها، ثم جلس معها يسمع قصتها الطويلة، ودموعه لا تزال تنهمر على خديه، صامت اللسان مضطرب الفؤاد.

وكانت فتاة طويلة القامة، ممتلئة الجسم، بيضاء البشرة، واسعة العينين، يخيل إلى الناظر إليهما أنهما كحلاوان من شدة سواد أهدابهما الطويلة؛ وكان وجهها تلوه صفرة طفيفة تزيده حسناً؛ وكان صوتها وهى تتحدث صوتاً عذباً هادئاً، ينم عن نفس مهذبة

اعتادت النعيم والسيادة. ولما انتهت من وصف حوادث بنى أسد إلى قتل أبيها، رفع امرؤ القيس رأسه، ونظر إليها والدموع تنهمر من عينيه، وقال لها بصوت متهدج: «أختاه»!

ف نظرت إليه هند وعيناها مغرورقتان، ووجهها مبلل، ووضعت يدها برفق على رأسه فمرت بها إلى ظهره، وقالت بصوت هادئ: «حسبك يا أخى. فقد صرت إليك، وأمنت فى جوارك».

فقال امرؤ القيس، وهو ينظر فى الفضاء نظرة قاسية: «الويل لهم! لأمثلن بهم ولأجعلنهم حديثًا للعرب. لأقتلن مائة من شيوخهم فى دم حجر. ولأقتلن أولهم شيخهم عمرو بن مسعود. أما علباء بن الحارث فلأطعمنه من لحمه. وأما عبيد. وأما ذلك العبد الدنىء...».

وسكت عند ذلك إذ لم يجد فى شدة حقدته وثورة غله عقوبة يهتدى إليها تشفى قلبه من عدوه الكريه، شاعر بنى أسد. ثم نظر إلى هند، وقد جفت دموعه فرآها مطرقة فقال لها: «سيرضيك انتقامى منهم أيتها الشقيقة».

فرفعت رأسها وقالت فى تردد: «ولكنى نسيت أن أقول لك...». فقاطعها امرؤ القيس: «سأنتقم منهم انتقامًا ينسبك كل ما حل بك من أذاهم، فاصرفى عنك التفكير فيما كان منهم».

فقالته هند باهتمام: «لم أرد ذكر شىء مما ظننت. لقد سمعتك تتحدث عن عمرو بن مسعود. فذكرت أمرًا ما كان ينبغى لى أن أنساه».

فقال امرؤ القيس مندفعاً: «عمرو بن مسعود؟ ليكونن أول من أصيب في ثأري إلا إذا استثنيت علباء ابن الحارث الكاهلي والعبد عبيد».

فأسرعت هند فقالت: «إذا تظلمه يا أخی. لقد وقف دون بابي والجمع الصاحب يحيط به يطلب دمی. يطلب دمی كما كان يطلب دماء بنى حجر وبنى إخوته وبنى عمامته. فوقف عمرو دونهم يقول: «إنها فى جوارى ولن تصلوا إليها إلا على جثتى».

ففتح امرؤ القيس عينيه فى دهشة، ثم قال فى صيحة: «أيفعل ذلك عمرو؟».

فقالت هند: «لقد فعل وبر بقوله. وضمنى إلى عياله، ولم يسمح لأحد أن يصيبنى بسوء حتى أوصلنى إلى أرض طيئ. حتى متاعى وأموالى وخدمى. لم يصبنى سوء فى شىء من كل ذلك وأنا فى جواره».

فلانت نظرة امرئ القيس وقال فى صوت خافت: «عجيب أمر هذا الشيخ!»

فاستمرت هند تقول: «لقد سمعته يتكلم فما سمعت صوتاً أقوى، ولا نعمة أعذب. وهو يقول للناس: «قتلنا حجراً، وقتلنا جند حجر. ولكننا لا نهتك الحرم ولا نسلب المال».

فصمت امرؤ القيس لحظة ثم قال: «أهو قد حملك إلى بلاد طيئ؟».

فبادرت هند قائله: «وأوصى بى عامر بن جوين».

فقال امرؤ القيس فى دهشة: «عامر بن جوين؟ ما عرفت هذا إلا فاتكاً خليعاً».

فأسرعت هند قائلة: «ما رأيت مثله وفاء. أقمت فى جواره ما أقمت، فكنت فى حرمة موفورة؛ وثار قومه بأتباعى وخدمى، فكان هو دونهم حامياً؛ وحرضه أهله على أكل أموالى قائلين له: «كل أموالهم فإنهم مأكولون»، فلم يسعه إلا أن ينجو بى وبأموالى وبمن معى فى ظلام ليلة مدهمة، قد لفها السحاب الداكن، فلا يرى فيها السائر كفه. فكنت لا أرى منه إلا ساقين حَمَشَتَيْن، إذا أضاء البرق، وهو مشمر عنهما يقود ناقتى مجدداً فى السير، حتى طلع بى إلى أرض اليمن، وأبلغنى نجران، وأسلمنى إلى قومى الذين جننت فى صحبتهم».

فهز امرؤ القيس رأسه، ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «لقد طالما صحبتنى فيمن صحبتنى من الذؤيان، ألا رُبَّ صعلوك ضم ثوبه على قلب كريم».

ثم قام يسير فى الخيمة مطرقاً، وغاب فى ذكريات أيامه التى قضاها مع فتية من أمثال ابن جوين، واهتزت نفسه فجعل يتغنى ببعض تلك الذكريات وهو ثائر الشجون، ولم يفق من أحلامه إلا على صوت عامر عند باب الخيمة.

فنظر نحو الباب فرآه مقبلا ، فاتجه إليه ، وعند ذلك قامت هند مسرعة ودخلت إلى الخباء فى أقصى الخيمة.

وبادر عامر قائلا: «القوم ينتظرونك ، قومك من أهل اليمن ، من قبائل حمير ، قد جاءوا على دعوتى لنصرتك».

فسأله امرؤ القيس فى لهفة: «وماذا رأيت منهم؟».

قال عامر: «لم أر إلا خيرا. ولكنى أحب أن أحدثك بعض الحديث عنهم ، حتى تكون على بينة من أمرى إذا لقيتهم. فإنك...».

ووقف متردداً كأنه يريد أن يختار لفظاً يودى ما يقصده.

فقال له امرؤ القيس: «نعم ، أفهم ما تقصد. إننى لم أعتد فى حياتى أن أقابل أمثال هؤلاء ، ولا أن أعانى مثل ما أنا فيه اليوم. حقا قد كنت أضرب فى الآفاق ، لا أعبأ بغير الشراب والمجون مع فتية لفظتهم القبائل وتبرأت منهم. هذا ما تريد أن تقول ، وهو حق...».

فقاطعه عامر قائلا فى لهجة تشبه الاعتذار: «لم أرد ذلك يا بن أختى ، ولكنى أردت أن أقول إنك لم تعرف هؤلاء القوم بعد ولم تخالطهم ، وإذا أنت ذهبت إليهم على غير علم بهم ، لم تأمن أن تخطئى قصدهم ، أو أن يخطئوا قصدك».

فقال امرؤ القيس رافعا حاجبيه ، وهو يبتسم ابتسامة ضئيلة: «لا عليك يا عماء ، فلو أردت ما قلته أنا لما كان عليك بأس ، ولم تكن مخطئا. ولست أجد إلا الشكر جزاء لك على حذبك وحرصك على فى أمرى ، فقل لى ما كنت تريد أن تقول».

فانبسطت أسارير وجه عامر، ثم رفع يده إلى قرب وجهه ناشراً أصابعه وقال: «أترى هذا اليد؟».

فتبسم امرؤ القيس وقال: «أحسبني أراها».

فقال عامر جاداً: «لن تستطيع هذه اليد أن تؤدى عملاً إلا إذا اجتمعت لها هذه الأصابع المفرقة».

فهز امرؤ القيس رأسه وقد أعداه جد صاحبه، وقال: «لا شك فى هذا».

فقال عامر وقد أشار بإحدى أصابعه مفردة: «ولكن هذه الأصبع وحدها لا قوة لها ولا تستطيع شيئاً».

فهز امرؤ القيس رأسه وهو صامت، وانتظر أن يتم صاحبه قوله، فاستمر عامر فقال: «قد تقدر أن تستغنى عن أصبع واحدة، ولكن يدك تفقد بفقدتها بعض قوتها. ولا تأمن إن أنت فقدت واحدة من أصابعك أن تفقد الأخرى إذا أنت استخفقت بأمرها».

فهز امرؤ القيس رأسه مرة أخرى، وعاد إلى الابتسام، واستمر عامر فى حديثه، فقال: «فنحن الآن فى موقفنا فى أشد الحاجة إلى كل قومنا، وإلى كل من نقدر على تجميعه حولنا من العرب. فتذكر مقالى كلما وجدت نفسك دون رجل من هؤلاء. احرص على مودة كل فرد منهم حتى تجتمع لك قوتهم كلها. لقد عاشرت العرب وعاملتهم حتى بلغت ما بلغت من سنى. وقد عرفتهم وعرفت نفسى بهم؛ فنحن معاشر العرب كسباع البر، نمشى فرادى،

ونعيش فرادى، ونجتمع ونحن فرادى. فإذا أردت أن يجتمع لك جمع، فاحرص على أن يجتمع لك منه كل فرد».

فقال امرؤ القيس، وقد عاد إلى الجد: «قول حكيم لن أنساه». فاستمر عامر قائلاً: «لا تظن الأمر سهلاً. إنى أعرفك معرفة لا تصل إليها أنت من نفسك».

فنظر إليه الشاب فى شىء من الدهشة، ولكنه لم يتكلم فعاد عامر إلى الحديث، فقال فى شىء من الصرامة: «أعرف فيك كبيراً عظيماً، وأعرف فيك غضباً سريعاً، وأعرف فيك ما هو أشد عليك من كل ذلك...».

ثم وقف ينظر إليه ليرى أثر قوله، فقال امرؤ القيس فى هدوء: «إنما تقول حقاً، فلا تخش أن تكشف كل ما عندك».

فعاد عامر إلى الحديث وقال: «فيك ما هو أشد خطراً من كل شىء، وهو أنك لا تستطيع المداراة. أنت ترى الرأى فى نفسك، فإذا هو على لسانك».

فأطرق امرؤ القيس لحظة، ثم قال فى هدوء: «صدقت». فقال عامر مرتاحاً: «هذا ما أردت أن أكشف لك عنه من رأبى، وأحب أن تعدنى بأمر واحد».

فقال امرؤ القيس مسرعاً: «تجدنى طائعاً». فوضع عامر يده على كتفه، وقال فى عطف ومودة: «لا تسرع إلى جواب أحد من القوم حتى تنظر فى وجهى. فأنا أعرف بهم منك».

فصمت امرؤ القيس وجعل ينظر فى أصابع يده، وقد قبضها ورفعها إلى قرب صدره. وأراد عامر أن يوضح له قصده، فقال: «إذا رأيت أنى مطرق فأمسك عن الحديث».

فرفع امرؤ القيس رأسه، وقال فى صوت هادئ: «أفعل ما تحب». فبدأ السرور على وجه عامر ومد إليه يده، فصافحه وهو يقول: «هلم إذا يا ولدى لنلقى القوم».

وخرجا سائرين نحو الخيمة الكبرى حيث اجتمع شيوخ من كندة وحمير من قبائل اليمن، أقبلوا جميعاً على دعوة من عامر بعد أن بعث إليهم بعض الهدايا مما كان فى خزائن حجر.

وكان امرؤ القيس فى سيره مطرقاً يفكر فيما قاله عامر بن الجون، فإن كلماته أثرن فى قلبه دفيناً، وحركن فيه ذكريات كاد ينساها فى هموم الحوادث السريعة التى مرت به فى الأيام الأخيرة. وكانت هذه الكلمات أقوى فى نفسه وقعاً وأبلغ أثراً، إذ كان من قبل يحسها فى غير وضوح؛ فلما صورها له عامر تبينها جلية ولم يجد فيها لوناً ينكره. ولهذا لم يغضب ولم يكره ذلك الصديق الصريح، بل جعل يفكر فى أمره كأنه يفكر فى أمر شخص غيره؛ فتمثل نفسه حقاً ذلك الفتى الشاعر الذى لا يستطيع كتمان عاطفته ولا كبح جماحها، والفتى المتكبر الذى يرى نفسه فوق سائر الناس فى ذكائه ودقة إحساسه وقوة إداركه، والفتى الثائر الذى لا يصبر على أذى ولا يتغاضى عن سيئة؛ فهو لا يقبل الحياة كما تقبل عليه،

بل يريد لها أن تهيأ له كما يريد لها، وهو لا يعاشر الناس على
علاقتهم، يأخذ منهم ما يعطونه ويعطيهم من نفسه ما يعرضهم من
ذلك، بل هو يعيش مع نفسه ولا يريد من الناس إلا أن يشاركوه
فيما يصيب من الحياة التي يريد لها، تمثل هذه النفس العجيبة
التي كانت تجد سلوتها في العيشة المضطربة التي عاشها حيناً من
الدهر، ضارباً في الآفاق، مع جماعة ساروا وراءه واتبعوه وأطاعوه،
يبتغون معه اللذة الوحشية التي كان يتمتع بها؛ تمثل هذه النفس
التي كانت لا تطمئن ولا تستقر، بل لا تزال تلتمس أن تهرب من
شجونها وهمومها، إلى حياة العنف واللهو والتشرد.

وفيما كان غارقاً في هذه الأفكار المضطربة، ثارت به صورة
فاطمة ابنة عامر فاطمة ابنة ذلك الرجل الذي يسير إلى جانبه،
والذي ألقى إليه المقادير قياد أمره، وجعلته ناصحه وصديقه
ومدبر شؤنه.

وما مرت ذكرى فاطمة في خياله حتى اضطرب قلبه، وضاق
صدره، وأحس كأنه يكاد يختنق. فلو كان الدهر لم يحرمه حبها،
ولو كان لم ينزعها منه هذه النزعة القاسية التي لم تترك له أملاً
فيها، ولو كانت نفسه لم تدفعه إلى تلك الحياة الصاخبة التي اندفع
في تيارها، بل أسرع عائداً إليها وسار في آثارها، وما زال يتدلل
لها ولأبيها حتى يفوز بها - لو كان شيء من ذلك أو ذلك كله،
لرضى من حياته بما أعطته، ولاستقر فيها قانعاً، ولأحس السعادة

التي لم يذقها يوماً في حياته؛ ولكنه لم يخلق إلا شاعراً، والشاعر لو رأى السعادة ماثلة أمامه تناديه أن يفتح ذراعيه لها، لهرب منها لكي يحيا في شقائه يتغنى بألمه من جراء حرمانه منها.

ثم تمثل امرؤ القيس تلك المواقف الجديدة التي كان عليه أن يقفها. وهؤلاء الحلفاء الذين وفدوا عليه كان لا بد له من أن يداريهم ويستميلهم، وهذه الحروب التي كان عليه أن يخوض غمارها؛ فاستولى عليه شعور قوى من الرهبة والكرهة لما هو مقبل عليه، لأنه لم يكن رجل الحياة الجاهمة العابسة التي تقوم على المعاملة والمقايضة والمساومة؛ فهو لو سئل بَدَل ما في الحياة كلها من ثروة وجاه وسيادة في سبيل نزوة من نزوات قلبه لجاد بكل ذلك راضياً. إنه لم يكن أهلاً لذلك الميدان الجديد الذي دفعته إليه الأقدار دفعاً، ولكنه كان لا بد له من النزول إليه.

ظل امرؤ القيس غارقاً في هذه الأفكار المتلاطمة المتدافعة حتى بلغ منزل وفود اليمن الذين كانوا في انتظاره في الخيمة الكبرى التي ضربت لهم، فنظر إليه عامر فوجده يسير مطرقاً كأنه غارق في حلم؛ فعاوده ذلك الإحساس الذي كان يحسه كلما رآه يسبح في أحلامه. إحساس يشبه الاحتقار، لولا ما يشوبه من عطف ورقة، فتنفس نفساً عميقاً، ثم رفع يده فلمس كتفه قائلاً: «قد بلغنا منزل القوم». فتنبه امرؤ القيس في شيء من الذعر، وقال وهو يتنفس: «هنا». ولم ينتظر جواباً بل سار نحو الخيمة وعامر يسير من ورائه ساهماً.